شيزاف؛ موت البدوي الحقيقي الأخير

تسور شيزاف، **نمر في الجبال**، تل ـ أبيب: الكيبوتس الموحّد، ١٩٨٨.

في كتاب «نمر في الجبال» يقدّم لنا الكاتب الشاب تسور شيزاف روايتين قصيرتين: «نمر في الجبال» (كتبت في ايلول ـ سبتمبر ١٩٨٥) ورواية «سانتا» (حزيران ـ يونيو ١٩٨٦). وليس في اختصاصنا، هنا، مناقشة مدى جمالية هذا الادب المكتوب، وانما ينصّب اهتمامنا، في المقام الاول، على تطورات عملية تصوير العربي في الأدب العبري، خاصة وان النزعة الجديدة التي نلمسها في أدب الشبان تبشّر بتغيّر نوعي خفيف.

يستفيد شيزاف، في روايتيه القصيرتين، من نتاجات كتاب عالميين، مثل ارنست همنغواي، ووليام فوكنر. وأثر هذين الكاتبين بارز في الروايتين: الاقتراب من اجواء همنغواي (المغامرات، الصيد، الطبيعة) والتقسيم الزمني المتمثّل في المونولوجات الشبيهة بمنولوجات فوكنر (اضافة الى التأثر بروايته القصيرة «الدب»). كما ان شيزاف يستفيد من انجازات الادب العبري في تصوير شخصية العربي، وخاصة من رواية غروسمان «ابتسامة الجدي»، ويؤسطر شخصياته على غرار شخصية «حلمي».

تحاول شخصيات شيزاف، عامّة، ملامسة الواقع، وهي، في الوقت عينه، حالة استعارية للواقع. فمجموع الشخصيات التي تلتقي في رواية «نمر في الجبال» (راماد، يونتان، موسى علي، يغئال) تسير في واقع صحراوي، وتحاول ان «تفعل شيئاً في الحياة لتشعر بأنها لمست الحقيقة» (ص ٣١). فموسى علي تحوّل الى «بدوي يهود»؛ ويغئال يتصور انه، من طريق فهم الحيوانات، يستطيع فهم البشر؛ ويونتان المراقب الصغير الذي احضره يغئال الى الصحراء والذي فيه «عناد لاتجده في بدوي». راماد ينتقم من اليهود (القادمين الجدد الى الصحراء ومحطمي عالمه) بقتل النمر؛ وفي النهاية تكون نهايته ونهاية عائلته بالطوفان الذي يغمرهم.

تلتقي كل هذه الشخصيات في الصحراء. واهم ما يميّز هاتين الروايتين («نمر في الجبال» و«سانتا») هو ان الصحراء هي البطل؛ فالمكان هو الذي ينتصر، في النهاية، على كل العوالم التي تنولد وتندثر فيه بصمت مرير، احياناً.

راماد؛ اصالة البدوي

تشكّل شخصية راماد، في رواية «نمر في الجبال»، صرخة حقيقية لما حدث من تغيّرات هائلة في عالم البدو. هذه الصرخة (مع كل القولبة التي فيها) هي صرخة شبه رومانسية؛ فالعودة واللجوء الى البدوي، في الروايتين، لم تكن الاّ عودة رومانسية، والبدو ـ بقدر ما هم شخصيات حقيقية ـ يستمدون واقعهم واحلامهم ممّا كان. بمعنى آخر، ان البدوي هو شخصية منمّطة ومقَولبة اسعفت شيزاف لاضفاء العنصر التشويقي «الاكزوتي» على الرواية.

راماد هو ابن موسى علي. وهو يقدّم، في الرواية، صورة البدوي الحقيقي الذي يحافظ على منابعه واصالته وحقيقته: «اريد ان اكون بدوياً حقيقياً، وليس تابعاً لليهود» (ص ١٧). ويذكر تفاصيل كثيرة تابعة لعالمه: «موسى علي اخبرني. اخذني عندما كنت طفلاً. لقد أراني، ايضاً، مصيدة النمور الموجودة هنا فوق، ليس بعيداً». وهذه المصيدة، التي يتكرر ذكرها كثيراً في الرواية، بناها «احد اجداد اجدادي، عندما لم يكن هناك سلاح، والناس كانوا ابطالاً، وكانت لهم مكائد للحفاظ على الاغنام والجمال من النمر. لأن النمر هو عدو متعادل. عدو